جهود الوزراء المسلمين في رسم صورة الاسلام للمغول
(615-697هـ/1219-1298م)

الأستاذ: أحمد جلايلي
أستاذ محاضر ب - جامعة أدرار
البريد الإلكتروني: djellailiahmed@yahoo.fr

ملخص باللغة العربية:

يتطرق المقال إلى الدور الذي لعبه بعض الوزراء في تحويل العنصر المغولي إلى الدين الإسلامي، ويآتى على رأس هؤلاء أسرة يولواج، التي تعدة من بين الأسر المرموقة في بلاد ما وراء النهر، فقد لعب أفرادها دوراً رائدا في تحسين العلاقة بين الجيش المغولي المحتل وبين المسلمين، وقد برز من هذه الأسرة كل من: محمود يولواج وإبنه مسعود بك، إستطاعوا بحنكتهم ودهائهم الحد من تجاوزات المغول، كما أعادوا ترميم وتشييد مدن بلاد ما وراء النهر، وأقنعوا السيدات المغوليات بالعطف على المسلمين، وتشييد بعض المدارس التعليمية.

ملخص باللغة الانجليزية:

The article deals with the role played by some ministers in transforming the Mughal element to the Islamic religion, and comes on top of these families Aoloaj, which is prepared by one of the most prestigious families in Transoxiana, the members play a leading role in improving the relationship between the occupier Mongol army and among Muslims, has emerged from this family are: Mahmoud Aoloaj and his son Massoud back, managed to Bhnkihm and wits and resources to reduce the excesses of the Mongols, and returned the restoration and construction of the cities of the country beyond the river, and persuaded Amoulyat ladies sympathy for Muslims, and the construction of some educational schools.

توطئة:

إهتم العديد من الباحثين بتاريخ المغول[1] بمختلف فتراته، وقد ركز الكثير منهم على الهجمات العسكرية التي قاموا بها ضد العالم الإسلامي، حيث إنبهروا من تفوقهم العسكري على المسلمين، وقد أضهر لهم هذا الأمر مدى ضعف الجانب الحربي للجيوش الإسلامة، وقد كانت نتائج تلك الحروب وخيمة على المسلمين، حيث خُربت الكثير من المراكز الحضارية المتواجدة في بلاد تركستان[2] وبلاد ما وراء النهر[3] وخراسان.

---

[1]- المغول هم مجموعة من القبائل البدوية كانت تعيش في هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبي، الممتدة من جنوبي سيبريا إلى شمال التبت وغربي منشوريا و شرقي تركستان، فهي تقع بين جبال التاي غربا وجبال خنجان شرقا، وكانت تلك القبائل دائمة النزاع والتناحر فيما بينها، وكانت تنقسم إلى قبائل مستقرة تسكن الغابات وتصنع منازلها من الأكواخ وتزاول عملية تربية الحيوانات، وأخرى قبائل رحل تتبع المراعي الخصبة، وتصنع خيامها من الليبد،وهي تصطاد الأسماك والحيوانات البرية.(فؤاد عبد المعطي الصياد: مرجع سابق، ج1، ص30. فما بعدها.).

[2]- تركستان هو اسم جامع لبلاد الترك، وهي تشمل كل البلاد التي تقطن فيها القبائل التركية،وتركستان هي كلمة فارسية مكونة من جزءين: "ترك" ومعناها الشعب التركي و"ستان" ومعناها البلاد أو الأرض، ومن هنا يصبح معنى تركستان أرض الترك أو موطن الأترك.(أنظر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت،1397هـ/1977م،مج 2، ص 24؛ الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، 1302هـ/1884م،ص 517؛انظر

لقد إنكسرت الجيوش الإسلامية بكل سهولة أمام ضربات المغول القوية، وبدت وكخيوط العنكبوت الواهية، ووجدت الرعية نفسها تقاوم لوحدها الآلة العسكرية المغول الرهيبة، دون خبرة مكتسبة، لذلك كان الفشل حتميًا، ولكن في الوقت الذي فشلت فيه هذه الأخيرة في صد المد العسكرى المغولي، نجحت العديد من الشخصيات الإدارية المسلمة المنضمنين إلى صفوف المغول، في التقريب الهوة بين الطرفين، وإستطاعت الدفاع عن مصالح المسلمين، وذلك بعد اعتلائها مناصب مرموقة في إمبراطورية المغول.

يحاول المقال الموجود بين أيديكم معالجة هذه النقطة الجوهرية في تاريخ المسلمين، حيث يتتبع حياة الوزراء المسلمين في إمبراطورية المغول، وكيفية الإنضمام إليهم، والأعمال التي قاموا بها، وسيركز على أعمال أسرة يلواج المسلمة.

أولا- التعريف بأسرة يلواج:

عمل جنكيزخان(549- 623هـ/1155-1227م)[4] منذ توحيد القبائل المغولية على بناء إمبراطورية واسعة، لذلك قام بإجتذاب إلى خدمته أكثر الأفراد موهبتًا من بين الشعوب التي احتلها، وعلى رأس هؤلاء نجد الوزراء، وقد اتّبع أحفاده: أوكوتاي ومونجك وهولاكو وكوبيلاي من بعده نفس السياسة، وبذلك استطاعوا تسيير لإمبراطوية العظيمة التي تركها لهم جدهم، واستمرت موجودة فترة طويلة من الزمن[5]

لقد فَّضل الكثير من المثقفين المسلمين التعاون مع المغول، على اعتبار أنّ حكمهم للبلاد كان أمرًا واقعاً، نظراً لتفوق ألتهم العسكرية، كما رؤوا بأنّ التنسيق مع الغزاة قد يخفف من وحشيتهم، ويُحسن مُعاملتهم للمسلمين، وبالتالي ينتهجون معهم سياسة مغايرة تتسم بالمسالمة، فتهدأ الأوضاع وتصفو الأجواء، ويخلو الجو للمسلمين لدعوتهم إلى لإسلام، فتعم الفائدة للطرفين حُكامًا ومَحكومين، وقد تحقق ذلك بالفعل، وأصبح للوزراء والموظفون المسلمين نفوذًا كبيرًا في إمبراطورية المغول، ذلك بعد أن استخدمهم الخانات والأمراء في مختلف وظائف الحكم الإدارية والمالية، وقد تمكنوا من تحويلهم إلى الدين الإسلامي، كما لعبوا دورًا بارزًا في إعادة بناء المدن التي خربها المغول[6].

القلقشندى: الصبح الأعشى،دار الكتب الخديوية، القاهرة، 1914م،ج 4،ص 439؛ الكاشغري: ديوان لغات الترك، دار الخلافة العلية، 1333هـ، مج 3، ص ص،110، 111؛ هاجر بنت عبد الحميد محمد تركستاني: التعليم في تركستان الغربية منذ الفتح الإسلامي الأول حتى بعد الاستقلال، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التربة الإسلامية والمقارنة، سنة 1426هـ/2004م، ص13.).

[3]- ما وراء النهر: يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقه يقال له بلاد الهياطلة وفي الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان في غربه فهو خراسان وولاية خوارزم، وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيرا، وليس بما وراء النهر موضع يخلو من العمارة من مدينة أو قرى أو مياه أو زروع أو مراع.(أنظر، ياقوت الحموي: المصدر السابق، مج.5 ، ص ص، 45-46.)؛ ويقول بارتولد أن ما وراء النهر هو الإسم الذي أطلقه العرب على المنطقة المتحظرة الواقعة في حوض نهري أموداريا/ Amu-Darya(جيحون) وسرداريا/Sir-Darya(سيحون)، ولم تكن هذه المنطقة وفقا لمفهوم الجغرافيين المسلمين تدخل ضمن تركستان لأن هذه الأخيرة يقصد بها بلاد الترك عامة.(أنظر، بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والأدب، الكويت، 1401هـ/1981م، ص.145.).

[4]- ظهر جنكيزخان المولود في سنة 549هـ/1155م وتوفي 623هـ/1227م، من إحدى تلك القبائل المسماة " قيات"، واسمه الحقيقي تيموجين، وكان أبوه "يسوكاي بهادر" ابن برتان بهادر ابن ألان قوا، وهي امرأة من قبيلة قيات المغولية، وكان أبوه رئيس قبيلة شجاع تخضع له معظم القبائل المغولية، خاض عدة معارك ضد الصينيين، ولما مات كان تيموجين في 13 من عمره، فانفصل عنه معظم حلفاء أبوه وتركوه شريدا طريدا وحيدا مع أمه وإخوته يقاسى الأهوال والمخاطر.(أنظر، فؤاد عبد المعطي الصياد: مرجع سابق، ج1، ص.39؛ القلقشندى: مصدر سابق،ج4، ص305؛ Le BARON C.D'ohsson : Histoire des mongols, depuis Tchinguiz-KHAN Timour BEY ou TAMERLAN ,LA HAYE ET AMSTERDAM LES FR2RES VAN (CLEEF,1834, Tome 1 ,p39.

[5]- إيمي شوا: عصر الإمبارطورية كيف تتربع القوى المطلقة على عرش العالم وأسباب سقوطها، ترجمة، منذر محمود صالح محمد، العبيكان للنشر، المملكة العربية السعودية، 1432هـ/2011م، ص. 146.

[6]- رجب محمد عبد الحليم: انتشار الإسلام بين المغول، دار النهضة العربية، 1986م، ص71.

من بين الأسَرْ البارزة التي لعبت دوراً مهمًا في تخفيف حقد المغول على المسلمين، وعملت على إعادت بناء بعض المدن الحضارية التي هدمها هؤلاء أثناء هجمتهم الأولى لمملكة تركستان وبلاد ما وراء النهر، نذكر: أسرة يلواج[7]، التي كانت تنتمي إلى الوزير المسلم محمود يلواج الخورزمي، الذي قام بمهنة السفارة لجنكيزخان سنة 614هـ/1217م، ومنذ ذلك الوقت وهو في خدمته، حيث أصبح من أقرب مقربيه وبمثابة وزيره الأول ومستشاره الخاص، وبقى يتمتع دائمًا بعطفه ورعايته إلى أنّ عينه نائبًا عنه على بلاد تركستان ومنطقة ما وراء النهر[8].

ظّل محمود يولواج في ذلك المنصب إلى عهد ابن جنكيزخان "أوكتاي قاآن"(626-639هـ/29-1241م)[9]، الذي كان يستشيره هو الآخر في الكثير من الأمور، وبعدها نقله من منصبه كحاكم عن منطقة تركستان وبلاد ما وراء النهر، وعينه حاكمًا على كل ممالك الخطا[10]، وعهد إلى ابنه "مسعود بك" بأخذ منصبه كحاكم على مملكة تركستان، وولاية الأويغور[11] المتمثلة في مدينة "بيش باليق" ومدينة قراخوجو والختن وكاشغر[12] والماليق وقاياليق، وحكم بلاد ما وراء النهر حتى شاطئ جيحون[13].

في حين يذكر المؤرخ الروسي بارتولد أنّ أوكوتاي قاآن عينه على حكم مدينة بيكن الصينية فقط، وذلك بعد أن أضاف حكم بلاد ما وراء النهر لأخيه جغطاي، وبقى محمود حاكمًا على الصين إلى غاية وفاته في سنة

---

[7]- يلواج هو مصطلح معناه السفير أطلق على محمود عندما قام بمهمة السفارة بين جنكيزخان والسلطان محمد بن خوارزمشاه سنة 614هـ/1217م، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليه لقب يلواج ودخل في خدمة جنكيزخان. الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، ببيروت، 1980م، ج1، ص155.

[8]- نفسه.

[9]- هو أصغر أبناء جنكيزخان، ولى عهده من بعده، وملك من جبال كارباجي وأطراف بحيرة "الاجول" وحوض نهر إسميل الواقع غربي منغوليا، فكان هو صاحب الحل والعقد يعين ويعزل الرجال وإليه يرجع عرض وتجهيز الجيوش، وحكمعامين من 624إلى626هـ/1227إلى1229م،بمساعدة ثلاثة مستشارين حتى أنتخب الخان الجديد.(أنظر، القلقشندى: مصدر سابق، ج4، ص ص،309،308؛ الصياد: مرجع سابق، ج1، ص165.).

[10]- الكيدانيون(الخطا) ويعرفون أيضا بـ"كاراكيتاي/القراخطاي" وهم شعب خليط من التونغوس والمغول حيث كونوا دولة في شمال الصين تعرف بـ"لاوو"(1134-1211م) كانت مترامية الأطراف تمتد من المحيط العظيم إلى بحيرة بيكال وتيان شان، زاول الكاراكيتائيون علاوة على رعي الماشية الزراعة والتجارة، وفي الثلاثينيات القرن 11م بدءوا بالزحف غربا عبر أراضي القرغيز والتركستان الشرقية حتى وصلوا في الشمال الغربي إلى نهر "أميل/أمول"، حيث بنوا مدينة وسكنوا المنطقة المعروفة حاليا بـ"تشوغوتشاك" وكان عددهم يربو عن 40000 كيبيتوك، وكان حاكم القراخاني ببلاساغون قد استدعاهم نتيجة مضايقات قبيلتي "كانغلي" و"كارلوك/القارلوق" اللتين كانتا تشكلان قوة عسكرية وسياسية كبيرة في سيميريتشي، أما بالنسبة للمجموعة الثانية المتجهة إلى تركستان الشرقية فقد هزمت في مكان ما في كاشغر على يد أرسلان خان أحمد بن تومغاتش خان حسن في سنة 1128م، وأسر زعيمهم الملقب بـ"الأحدب".(رشيد الدين فضل الله الهمذاني: جامع التواريخ، من تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي قاآن إلى تيمورقاآن، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة: يحي الخشاب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ص.21-22).

[11]- تأسست الدولة الأويغورية على ساحل نهر أورخون، واتخذت مدينة "قارابالغاسون" عاصمة لها، وكانت تحكم كل من تركستان الشرقية ومنغوليا، وبعض الولايات الصينية، وقد غزى حاكمها "بوكوك خان" الصين، ووصلت فتوحاته إلى مدينة "لويانج" التي كانت عاصمة أسرة "تانغ" في عام 762م، ولبثت الدولة الأويغورية رافلة في أثواب عزتها، متمكنة في أوج قوتها مدى قرن من الزمن(740-840م)، ثم إنهارت على يد قبيلة تركية أخرى وهي القرغيز. وكان الشعب الأويغوري متحضرا مقارنة بالشعوب التركية الآخرى، يملك ثقافة رفيعة، ويمتلك أبجديته الخاصة به كان يؤلف بها أدابه، كما كانت له علاقات تجارية مع كل من الهند والصين(أنظر، عبد العزيز جنكيزخان: تركستان قلب آسيا، ط.1، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، القاهرة، 2010م، ص. 26؛ Pierre KOUZNIETSOV : LA LUTTE DES CIVILISAIONS ET DES LANGUES DANS L'ASIE CENTRALE, (Thése pour le Doctorat, Faculté des lettres de L'université de pares, Jouve Cie éditeurs 15 rue Racine, paris, 1912, p.58.).

[12]- كاشْغَر: بالتاء الساكنة والشين معجمة والغين أيضا، وراء، وهي مدينة ورساتيق يسافر إليها من مدينة سمرقند، وهي في وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون، وهي تقع بالتدقيق في أقصى الغرب من بخارى في تركستان الشرقية، وهي مدينة تجارية عريقة ومشهورة بصناعة منسوجات الصوف، وأشهر محافظاتها أرتوج: ومعناها أرض الأرز وهب بلدة معروفة تقع على بعد 30 كلم من كاشغر وتنقسم إلى قسمين: آستين أرتوج أي السفلة، وأوستون أرتوج أي العلوية، ومنها خرج أغلب علماء تركستان الشرقية، وفيها عدد كبير من المدارس والمعاهد الإسلامية، وفيها يرقد خاقان الدولة القراخانية الأويغورية ستوق بوغراخان أول من إعتنق الإسلام في ربوع تركستان الشرقية.(أنظر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج.4، دار صادر، بيروت، د.ت.ن، ص.430.).

[13]- رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ المغول الإلخانيون، ترجمة: محمد صادق نشأت و فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة: يحي الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، سوريا، مج2، ج2، ص ص، 93-94.

652هـ/1254م[14]، ويذكر المؤرخ ابن العبري أنه في عهد "كيوك خان"(644-647هـ/47-1249م)[15] أضاف إليه مملكة الخطا، وثّبت ابنه مسعود على مغول تركستان[16]. يبدو أنّ حكم محمود لبلاد الخطا كان مباشرة بعد وفاة كيوك قاآن، في أثناء إدارة زوجته "توراكينا خاتون" للإمبراطورية ريثما يتم تعيين خان جديد، حيث تم عزل الوزير عبد الرحمن عن إدارة بلاد الخطا وعين مكانه محمود يلواج[17]، وقد بقى الأب وابنه في منصبيهما مدة طويلة من الزمن، وقاما بمهمتهما أحسن القيام.

ثانياً- ثناء العلماء على هذع الأسرة:

يتحدث المؤرخ ابن الفوطي بوقار وإجلال علن الوزير محمود يلواج، فيقول: هو" فخر الدين أبو القاسم محمد بن محمد، يعرف بيلواج الخوارزمي، كان من أعيان دولة جنكيزخان والعظماء والوزراء في هذا الزمان، وعليه مدار الملك في المشرق، وإليه تدبير ممالك تركستان وبلاد الخطا وما وراء النهر، وكان مع هذا الحكم والدهاء كاتبًا سديدًا يكتب بالمغولية والأيغورية والتركية والفارسية، ويتكلم بالخطائية والهندية والعربية، وكان غاية في الفهم والذكاء والمعرفة، وبتدبيره انتظم للمغول ملكهم"[18].

ويقول فيه جمال قرشي:"الصاحب الأقدم والدستور الأعظم فخر الدين وغياث الإسلام والمسلمين، أعدل وزراء الخواقين، ضابط الممالك، حارس أهل الإسلام من المهالك"[19]، وهذه شهادة تلخص لنا قدر هذا الوزير، وتبين لنا الأعمال الجليلة التي قام بها.

وقد أدار ابنه مسعود بك كذلك أمور إلخانية مغول تركستان خير الإدارة، حتى قال فيه ابن الفوطي: أنه "صاحب الحكم والحكمة، وزاد على أبيه في علو الهمة"[20]، ومدحه القرشي بقوله: إنه" الصاحب الصدر الكبير المعظم، الأمير الخطير المفخم، سلطان وزراء العلم، مفخرة الأمراء بني أدم، صاحب السيف والقلم، ناصب الطيور والعلم، ناشر البر والكرم، راقي رتبتي الملك والعلم، ساقي كأسي البأس والحلم، سايق حلبتي الحرب والسلم، لَيْثِي الوشوب في الحروب، غَيْثِي اليسوب للنشوب، برهان الدنيا والدين مسعود بن محمد الخوارزمي، الذي هو خلاصة النقد ووساطة العقد...، وكانت أيامه كالليالي في أنامه الفتن واستنامة الرماية لإلي السبات والسكن، لاستخلاصهم عن العوارض والفتن...، فاعتلى لواء العلم بنصره وانجلى ظلام الظلم في عصره ...، توفي سنة 688هـ/1289م ودفن في مدرسة بخارى"[21].

وبعد وفاته ورث ابنه مسعود الثاني أبو بكر مسعود منصبه، حيث أدار هذه الولاية، من سنة(689هـ/1290م) إلى غاية وفاته في سنة(697هـ/1298م)، وقد حكم من بعده أخوه أيضا في مدينة كاشغر، وكان يعرف بالأمير مسعود الثالث "سيونج بن مسعود"[22].

ثالثا- أعمال محمود يولواج:

---

[14]- بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، المرجع السابق، ص. 664؛ بارتولد: تاريخ الترك في أسيا الوسطي، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ص ص،204،203.

[15]- هو الابن الأكبر لأوكتاي قاآن، ولد من زوجته الكبرى"توراكنه خاتون". (أنظر، رشيد الدين الهمذاني: المصدر السابق، مج2، ج2، ص.175.).

[16]- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، بيروت، 1403هـ/1983م.، ص448. فما بعدها من عدة صفحات.

[17]- علاء الدين عطا ملك الجويني: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، تحقيق، محمد عبد الوهاب القزويني، ترجمة، السباعي محمد السباعي، مج.1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007م، ص. 249.

[18]- ابن الفوطي: من تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق:مصطفى جواد، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، ج 4، قسم 3، ص398.

[19]- جمال قرشي في محمد على البار: مرجع سابق، ص ص، 84،83.

[20]- ابن الفوطي: مصدر سابق، ج 4، قسم 3، ص 398.

[21]- جمال قرشي في محمد علي البار: مرجع سابق، ص84.

[22]- نفس المرجع، ص ص،85،84.

لعبت هذه الأسرة الكريمة دورًا مهمًا في خدمة الإسلام والمسلمين في آسيا الوسطى زمن المغول، فقد تمكن محمود يلواج التخفيف من ألام الضربة القاسية التي أوقعها جنكيزخان بسكان بلاد ما وراء النهر، واستطاع بحسن تدبيره إعادة تعمير البلاد التي خربها، وعمل على إصلاح أحوال الناس وتنظيم الإدارة وسياسة البلاد أحسن سياسة[23].

ومن بين الأعمال التي قام بها محمود يلواج وابنه مسعود، هو إعادة الإزدهار والرقي إلى مدينة بخارى من جديد، حيث يذكر في ذلك مؤرخ المغول عطا ملك الجويني:أن البلاد كانت خربة "حتى إذا ما تولى مقاليد الحكم سلطان العالم(أوكتاي قاآن)، حاتم آخر الزمان، زاد اهتمامه بها(بخارى)، فعهد بأمرها إلى بلواح(يلواج) الذي جذب بمغناطيس عدله ورأفته الشذاذ والمتفرقين الذين هربوا بأنفسهم لاجئين إلى الزوايا والخبايا، فعادوا إلى أوطانهم، وولوا وجوههم من جميع البلدان والأمصار وأقاصى الأقطار وأدانيها شطرها فارتقت عمارتها، وحسنت إدارتها بفضل رعايته لها وعنايته بها، ولم يبقى عند هذا الحد بل بلغت أقصى درجات الرقي والازدهار، وصارت ساحتها مستقرا للكرام والكبار ومجمعًا للخاصة والعامة من الناس."[24].

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها محمود يلواج لصالح المسلمين، هو توسطه لدى أوكتاي قاآن في سنة 636هـ/ للعفو عن أهل بخارى بعد صدور الأوامر من جغطاي وحاكم المدينة المغولى بالتخلص من جميع سكان المدينة، بعد التمرد الذي قاموا به بقيادة أحد المتصوفة الملقب بـ"غربال"، فَقَبِل الخان ذلك وأصدر أمره بالعفو التام عنهم، فارتفع عنهم العذاب الذي كان وشيك الوقوع بهم فجأة، وإستعادت البلاد أمنها ورخاءها من جديد[25]. وهذه حسنة من بين حسنات الوزير محمود يلواج.

وقد لعب يلواج دورا إيجابيا لصالح سكان بخارى بعد الثورة الشعبية التي قاموا بها ضد الحكام المغول بقيادة أحد صناع الغرابيل بقرية تاراب، وبلغت خطورتها بأن استطاع الثوار إحراز نصرًا بارزًا لبعض الوقت على الجيش المغولي، وكانت هذه الثورة نوع من أنواع التمرد على الوضع المزري الذي كان يعيشه المسلمين في ظل حكم الغزات، ولكن المغول سرعام ما سيطروا على الوضع وهزموا الثوار، وهموا على إنزال أقصى العقاب بهم، وفكروا في إبادتهم جميعًا، ولم ينقذهم من ذلك العذاب سوى وصول محمود يلواج، الذي كان يعد المدافع عن احتياجات الشعب الكادح، وخاصة عن الفلاحين الذي كانوا يقاسون من جراء نظام المغولى المطبق عليهم، حيث بذل جهدًا كبيرًا في إقناع المسؤولين المغول بضرورة تأجيل معاقبة الثوار بعد إعلام القاآن، وقد استقبل أوكتاي رسل يلواج بعين العطف، ووافق على الصفح عن أهل بخارا، في سنة (636هـ/1239-1240م)[26].

ونظرًا لهذا العمل الجليل الذي قام به محمود يلواج إنتعشت المدينة من جديد وعمها الأمن، وجاءها الخلق من كل الجهات، وأصبحت عامرة بالسكان ولا تضاهيها أى مدينة من ديار الإسلام من إزدحام الناس والعلماء والطلبة، وإزدهرت فيها الحياة العلمية، وكثرت فيها المباني، وكل ذلك تحت حماية الصاحب الأجل محمود يلواج، كما نعم أهل بخارى بالرخاء، وتم تخفيض عنهم الضرائب والمكوس التي فرضها عليهم المغول، وأصبح أهلها يدعون ليل نهار لله عزوجل ببقاء السلطان العادل –أوكتاي قاآن-، وعامله محمود يلواج، لكي يزدهر الإسلام ويعتز الدين الحنيف[27].

لقد لاقى محمود يلواج في سبيل تحقيق ذلك الكثير من المصاعب، خاصة من طرف الإبن الثاني لجنكيزخان"جغطاي"، الذي كان يعمل في كل وقت على عزله وإبعاده من إلخانيته، دون استشارة أخاه الخان

---

[23]- الصياد: مرجع سابق، ج1، ص155.

[24]- الجويني، المصدر السابق، مج.1، ص.132.

[25]- نفسه، مج.1، ص. 132.

[26]- نفسه، مج.1، ص ص، 134-139؛ بارتولد: تركستان، مرجع سابق، ص ص، 665- 668.

[27]- الجويني، المصدر السابق، مج.1، ص ص. 132- 133.

الأعظم، في المقابل كان هذا الأخير يدافع عن يلواج ويرجعه إلى منصبه، وفي الأخير نقله إلى الصين وعين مكانه ابنه "مسعود بك" على تركستان[28].

من بين العراقيل التي واجهها محمود يلواج من جغطاي هو تجرأ هذا الأخير على كتابة مرسومًا في عهد حكم أخاه القاآن أوكتاي، يفوض فيه بعض بلاد ما وراء النهر التي يحكمها محود يلواج بتفويض من القاآن إلى شخص أخر – أعتقد أنه وزيره الخطائي المسمى وزير-، ولما علم يلواج بذلك أطلع القاآن بالأمر، فأرسل هذا الأخير مرسومًا يطلب فيه من أخاه جغطاي التحقق من ذلك، فكتب إليه هذا الأخير يعتذ ويعلل بأنه فعل ذلك عن جهل، فقبل القاآن إعتذاره، وأعاد محمود يولواج إلى عمله من جديد، ولكن جغطاي عنفه وسبه دون التعرض إليه[29].

بعد هذه الحادثة علم محمود يلواج أنّ المشاكل التي يتلقها مصدرها وزير جغطاي الخطائي، فما كان منه إلاّ أنّ أوقفه على إنفراد، وهدده قائلا:" أنا نائب القاآن، فلن يستطيع جغطاي قتلي دون إستشارته، أما إذا أنا شكوتك إلى القاآن، فسوف يقتلك، فأنت إذا تداركت أمرك ولم تتعرض لي بسوء فيها، وإلاّ فسأشي بك في حضرة القاآن، ولو تفوهت بهذا الكلام في حضرة جغطاي، فسوف أنكره مهما سئلت عنه، وليس لك عليّ أي شاهد"[30]، فاضطر الوزير أن يراجع نفسه، ويكف عن الكيد ليولواج.

استمرت تلك المعانات وإشتدت بعد موت "أوكتاي خان"639هـ/1241م من طرف جغطاي ووزيره قطب الدين حبش[31]، بالتعاون والتنسيق مع مستشارة الملكة "توركينا خاتو" المدعوة فاطمة، مما أدي بيلواج إلى الهرب هو ومساعده الأيغوري "جينغي"، واحتمايا بابن أوكتاي "كوتان"[32]، فنجيا من تلك المكائد والمؤامرات بعون الله وحفظه.

ويبدو أن الخان الجديد "كيوك خان"(644-647هـ/47-1249م)، أعاده لمنصبه في حكم بلاد الصين، لأن بارتولد يخبرنا أنّ وزير جغطاي "قطب الدين حبش" تم عزله من حكم مدينة كرمان وأجلس ابن عمه ركن الدين على عرشها، ونفي هو إلى بلاد الصين عند الوزير محمود يلواج، فعامله هذا الآخير أحسن معاملة وأكّن له كل الإحترام والعطف[33]، متناسيا كل الدسائس التي كان يحدثها له لدى جغطاي.

وقد استطاع الوزير محمود يلواج التقرب من زوجة الخان"سرقيني خاتون بيكي" وأثّر فيها حتى أقنعها ببناء مدرسة إسلامية في مدينة بخارى من مالها الخاص، وأوقفت عليها الكثير من الأوقاف[34]، كما تقرب كذلك من أرملة الخان المغولي "جوجي" المتعاطفة مع المسلمين، وأثّر على ابنها "باطوخان" حتى أصبح يعطف على المسلمين، واعتنق

---

[28]- بارتولد: تاريخ الترك، مرجع سابق، ص ص،204،203.

[29]- رشيد الدين الهمذاني، تاريخ المغول الإلخانيون، المصدر السابق، مج2، ج2، ص 157.

[30]- نفسه، مج.2، ج.2، ص. 157.

[31]- قطب الدين حبش عميد أصله من مدينة "كرمينية قرب بخارى وقيل انه من أوترارة،أصله من التاجيك ألتحق بخدمة المغول منذ فتحهم بلاد ما وراء النهر، ترقي حتى بلغ مرتبة الوزارة لدي جغطاي خان وبلغ عنده مكانة كبيرة ولكن لم تعرف عنه غيرته على الإسلام مثل يلواج، فهو لم يدافع أبدا عن المسلمين وقد هجاه الداعية الصوفي سيف الدين الباخرزي في رسالة بعثها إليه قال له فيها:"بما أن رب العزة قد أوكل إليك في هذه الدولة أن تنصر الحق، فماذا سيكون عذرك يوم الحشر إذا أنت لم تقم بذلك؟ وفي ملتنا الإسلامية –نصرها الباري إلي يوم الدين- شروط الرئاسة 3هي: العلم والسن والإسلام، فإذا أراد شاب لا خبرة له أن يتولي الرياسة فإنه في نظر العقلاء لا يعيب المسنين أن يحرموا منها، وحيث يصبح الهدهد القواد حاكما على الأمور"مليك" فإنه لا عار على الباري في أيام دولته أن يكون بغير تاج، ومن الأفضل للعقلاء أن ينأوا بأنفسهم إذا ما تولي السفهاء الرياسة، ذلك أن القصر عندما يصبح منبرا فإنه من الخير البقاء بلا منبر"،ولاشك إن هذا الكلام صريح وشديد القوة على هذا الوزير الذي لم يهتم إلا بجمع الأموال و الثروات ولم يهتم بالمسلمين ولا حاول نصرتهم. (أنظر، محمد علي البار:مرجع سابق،ص 87؛ توفي حبش عميد في بداية عهد "ألغو" سنة657هـ/1260م،بإحدى مدن ولاية المالية ودفن هناك بالخانقاه(الزاوية) التي بناها. بارتولد:مرجع سابق،ص 216.).

[32]- محمد على البار: كيف أسلم المغول، دار الفتح للدراسات و النشر، 1429هـ/2008م، ص89.

[33]- بارتولد، تركستان، المرجع السابق، ص. 670.

[34]- محمد علي البار: مرجع سابق، ص88.

أخوه "بركة خان"(654-665هـ/1256-1267م) الإسلام سنة 663هـ/1265م[35]، وكان ذلك إنتصارًا عظيمًا للإسلام والمسلمين.

رابعاً- أعمال مسعود بك:

لقد ذاق مسعود ابن محمود يولواج من نفس الكأس التي تجرع منها أبوه، فيخبرنا بارتولد، عن هربه هو أيضًا إلى سلطان القبيلة الذهبية "باطوخان[36] ابن جوجي ابن جنكيزخان"(624-654هـ/1227-1256م)، فرارًا بجلده من المؤامرات الخسيسة التي كان يدبرها له جغطاي، ولكنه تمكن قبل تنصيب "كيوك خان"644-647هـ/47-1249م من العودة إلى منصبه، واشترك في "قروليتاي" المنعقد في سنة 643هـ/1246م بصفته واليا على بلاد تركستان[37].

تمكن مسعود بك هو وأبوه النفاذ من المكائد التي كانت تحاك ضدهما، من قبل خانات وأمراء المغول ومن حذا حذوهما من الوزراء المتطلعين إلى تبوء مكانتهما، فما أحوجنا اليوم إلى رجال من طينة محمود يلواج وابنه مسعود بك في مواجهة الغازي الجديد ونصرة الدين الإسلامي.

لم يكتفي محمود وابنه مسعود بك من إنقاذ المسلمين من بطش المغول فقط، بل عملوا كل ما في وسعهم من أجل إعادة بناء مدن بلاد تركستان، كما أعادوا تنظيم الدولة وضبطوا أمور الإدارة ونشروا الأمان، وحكموا بالعدل في كل شؤون البلاد، وأعادوا إلى مدن بلاد ما وراء النهر، مثل: بخارى وسمرقند وكش وبلاسغون وخوارزم رونقها المفقود، فبنو المساجد والمدارس الدينية الرائعة[38].

وكان لمسعود بك الفضل الكبير في بناء المدارس الكثيرة في كاشغر وبخارى و"باش بالق" وسمرقند، وسميت بالمدارس المسعودية نسبة إليه، وخربها مغول إيران في سنة 1273م، ثم أعيد بناؤها من جديد، ولما توفي مسعود بك سنة 1289م دفن بها[39]، كما بني مدرسة(مسعودية) أخرى في مدينة كاشغر، كانت تحتوى على حوالى ألف طالب من طلاب العلم، يبيتون فيها ويأكلون ويشربون ويطلبون العلم، وكان يُدّرس فيها أنجب العلماء[40]، وقد إتخذها إبنه الثالث مقرًا له في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي[41].

قامت تلك المدارس بدور مهم في نشر الثقافة والعقيدة الإسلامية بين مغول تركستان، كما حافظت على التراث الإسلامية من الضياع، وكانت تلك المدارس تعج بالأئمة والمشايخ والمدرسين المسلمين، تغدق عليهم العطايا والمنح عرفانًا بمجهوداتهم الجبارة في خدمة الإسلام والمسلمين[42].

ويثنى مؤرخ المغول الجويني كثيرًا على تلك المدارس، حيث يقول:"والحق أنّ هذين البناءين الشامخين قد زينا ميدان بخارى وكانا لها زينة وبهاء، وليس هذا فحسب بل كانا

---

[35]- نفسه.

[36]- باتو ابن جوجي خان بن جنكيزخان، ولد من اركين قوجين خاتون ابنة ايلج ينويان من قبيلة قونقرات، وكان يدعى "صاين خان"، كان رفيع المنزلة وواسع النفوذ بين المغول، حكم أولوس القبيلة الذهبية بعد وفاة أبيه، ولما توفي أبناء جنكيزخان الأربعة جميعًا، صار باتو عميدًا لجميع أحفاده، حيث كان بينهم عظيم المهابة وافر الاحترام، ولم يكن أحد قط في القروليتاي(الإجتماع الأكبر) يرد رأيه، أمره الخان المغولي أوكتاي بأن يتوجه بالجيوش المغولية ويستولي على كل الولايات الشمالية الممتدة من ايبير سينبير والبولار ودشت القبجاق والباشغرد والروس والجركس حتى موضع "دربند خزر"، ويدخلها كلها في حوزته، وقد إستولى على أغلب تلك الديار ابتداء من سنة 633هـ/1235-1236م.(أنظر، رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، تاريخ خلفاء جنكيزخان من أوكتاي قاآن إلى تيمورقاآن، المصدر السابق، ص ص، 108-108م).

[37]- بارتولد: تاريخ الترك، مرجع سابق، ص ص،205،204.

[38]- محمد علي البار: مرجع سابق، ص87.

[39]- بارتولد: تاريخ اترك، مرجع سابق، ص204.

[40]- الجويني، المصدر السابق، مج.1، ص. 133.

[41]- بارتولد: تاريخ اترك، مرجع سابق، ص204.

[42]- رجب محمد عبد الحليم: مرجع سابق، ص77.

زينة بهاء للإسلام قاطبة."[43].

وقد تمكن مسعود بك في كثير من الأحيان إنقاذ البلاد من الخراب الذي كانت تتعرض له من قبل حكام وأمراء مغول مملكة تركستان، فتمكن بدهائه وحنكته أن يثني القائد المغولي براق خان(664-668هـ/1256-1270م) بالعدولة عن عزمه تخريب بلاد ما وراء النهر، كما أقنعه بالعدول عن سياسته التعسفية تجاه الرعية، حيث كان يستحوذ على أموال الناس وأمتعتهم عنوة، فلم يتأخر مسعود في تقديم النصيحة له وأرجعه إلي جادة صوابه، فتخلى عن تلك السياسة الظالمة للرعي[44].

ولم تتوفر لدينا معلومات أخرى عن نشاط الوزير"مسعود بك" خلال فترة القلاقل والإضطربات التى عصفت بالمغول قبيل فترة حكم "مونكو خان"، إلاّ أنه بعد إستتباب الأمر، شملت حدود ولايته كل من تركستان وبلاد الأويغور(ختن وكاشغر) وأترارة وبلاد ما وراء النهر، في عهد أوكتداي وخلفائه حتى عهد قايدو، وفي أثناء حملة هولاكو(654-664هـ/1256-1265م) التي إستولى بها على مدينة بغداد سنة 1253م، إستقبله مسعود بك في مدينة سمرقند سنة 1255م، وقدم له وسائل الراحة لمدة أربعين يوما[45].

خامساً- دور بعض الوزراء الأخرون:

لعب وزراء آخرون نفس الدور الذي لعبته أسرة يلواج، من الاهتمام بالمسلمين ونشر الإسلام بين مغول تركستان، مثل بهاء الدين المرغياني الذي كان من أسرة دينية مسلمة تولت مشيخة الإسلام في فرغانة، وقد فقد بهاء الدين والده في سن مبكرة فتبناه حبش عميد وزير جغطاي، ولما اعتلى "ييسو- مونكي خان بن جغطاي"(645-650هـ/1242-1252م) السلطة أراد البطش بحبش لأنه انحاز إلي ترشيح "قراهولاكو"، ولكن بهاء الدين لم ينس له جميله فقد سعي إلى امتصاص غضب "يسسو" وأنقض حياة حبش[46]، وقد تمكن تقلد منصب الوزارة بجدارة في عهد "ييسو" ولعب دورا مهما في حماية الإسلام والمسلمين[47].

وقد لعب السيد الأجل البخاري الذي تولى الوزارة في الصين بعد وفاة محمود يلواج 658هـ/1259م الدور نفسه، حيث ظل في منصب الوزارة مدة 15 سنة إلى غاية وفاته 683هـ/1284م[48]، وتمكن الوزير "خذابنده زاده" صاحب ترمذ تقديم خدمات جليلة للسلطان خليل، فأمده بـ 4 ألاف من المقاتلين الأشداء كانوا له عونا في حربه على بوزون خان"735-739هـ/1335-1338م"[49]، فهزموه وعلت كلمة الإسلام من جديد في مملكة مغول تركستان، وهكذا قدم الوزراء خدمات جليلة لتحويل مغول تركستان إلى الإسلام.

خاتمة:

نَقَم الكثير من المؤرخين والباحثين على المسلمين الذين تولوا مناصب في دولة المغول، حيث صنفوا في حقهم الكثير من المؤلفات، ذكروهم فيها بشتى الأوصاف والنعوت، ووصل بهم المقام إلى إخراجهم من ملة محمد صلى الله عليه وسلم، واتهموهم بالعمالة والخيانة، ولا شكى أنّ هؤلاء المؤرخون كانوا محقين في بعض الشخصيات، ولكنهم أخطؤوا

---

[43]- الجويني، المصدر السابق، مج.1، ص. 133.

[44]- رشيد الدين الهمذاني: تاريخ المغول الإلخانيون، المصدر السابق، مج2، ج2، ص23.

[45]- بارتولد، تركستان، مرجع سابق، ص. 670؛ تاريخ الترك، مرجع سابق، ص ص، 205-206.

[46]- محمد علي البار: مرجع سابق،ص 96

[47]- نفسه، ص134.

[48]- نفسه.

[49]- ابن بطوطة: تحفة الناظر في غرائب الأمصار و عجائب الأمصار، تحقيق: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، 1417هـ/1997م، مج 3، ص34.

في حق البعض الآخر، وكان من الواجب علينا كباحثين معالجة هذه النقطة بدون تسرع وبدون إصدار أحكام جزافية، وكان من الواجب علينا وزن تلك الأعمال التي قام بها هؤلاء الوزراء، ودراسها لمعرفة هل كانت نتائجها تصب في صالح المسلمين أم العكس.

يمكن القول أنّ الكثير من المسلمين علموا أنّ الألة العسكرية المغولية كانت قوية، فقد شاهدوا بأم أعينهم إنهزام الجيوش الإسلامية في بلاد ما وراء النهر بكل سهولة، لذلك فضلوا إتباع إستراتيجية مغايرة، تتلخص في التقرب من المغول ومحاولة إعتلاء مناصب مرموقة في إمبراطوريتهم الكبيرة، والعمل بواسطها على الدفاع على حقوق المسلمين المهضومة، ومعالجة سياستهم الخاطئة، وإعادة إعمار المراكز الحضارية الإسلامية التي هدمها المغول.

والحق أنّ هذه الإستراتيجية كانت ناجحة، وقد إتضح ذلك جليًا من الأعمال التي قامت بها أسرة يلواج، حيث استطاعت في الكثير من الأحيان إسترجاع حقوق الفقراء المهضومة، ورد بطش بعض الحكام المغول الحاقدين عن الإسلام والمسلمين، كأمثال ابن جنكيزخان جغطاي، كما أنفقوا جهدهم في تشييد المدارس التعليمية، وخففوا الضرائب على السكان، والشيء المهم الذي أنجزوه هو إقناع زوجات الخانات المغول بالعطف على الإسلام والمسلمين.